



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



العلوم الإنسانية وحاجتها للدراسات البينية

Humanities sciences and their need for interdisciplinary studies

داود خليفة^{*1}

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي بالشفلف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر.

Key words:	Abstract
Interdisciplinary studies encyclopedias	The tremendous scientific progress and the diversification of its specializations have imposed many challenges, the most important of which is the difficulty of addressing scientific problems and issues based on a specific knowledge specialization, which necessitated attention to the unity of knowledge to create integration between specializations according to a comprehensive perspective. This is known as "transdisciplinary studies" or "interdisciplinary studies."
Knowledge integration	
Humanities sciences	
Natural sciences	It is known that interdisciplinary studies are those scientific researches that combine a precise specialized view and a comprehensive encyclopedic view, where narrow scientific specializations are transcended to the horizon of encyclopedic knowledge. The goal of interdisciplinary studies is to try to combine the precise specialization alone, and to search for points of juxtaposition and convergence with other specializations. In fact, since the sciences became independent in their subject matter and method from philosophy, they became known as specialization. Scientific knowledge was fragmented across precise specializations, and each specialization became its own field of study, which destroyed the complex fabric of knowledge. This is because knowledge has a comprehensive nature, which necessarily calls for the unification of knowledge. And its approaches. This is the endeavor that the human sciences sought through their quest to approach the natural sciences, and this idea is the essence of the new cognitive model that Edgar Morin calls for, which is represented by the "compound thought" paradigm.
Paradigm.	

ملخص	معلومات المقال
فرض التقدم العلمي الهائل وتفرع اختصاصاته تحديات كثيرة أهمها صعوبة معالجة المشكلات والقضايا العلمية انطلاقا من تخصص معرفي معين، الأمر الذي استلزم الاهتمام بوحدة المعرفة لإحداث تكامل بين التخصصات وفق منظور شمولي؛ وهذا ما عرف به الدراسات العابرة للتخصصات "أو" الدراسات البينية".	تاريخ المقال: الإرسال: 2024-03-09 القبول: 2025-06-15
ومن المعروف أن الدراسات البينية هي تلك البحوث العلمية تجمع بين النظرة التخصصية الدقيقة، والنظرة الموسوعية الشاملة، حيث يتم تجاوز التخصصات العلمية الضيقة إلى أفق الموسوعية المعرفية، فيكون هدف الدراسات البينية هو محاولة الجمع بين التخصص الدقيق منفردا، والبحث عن نقاط التجاور والتقارب بالتخصصات الأخرى. في الواقع ومنذ استقلال العلوم في موضوعها ومنهجها عن الفلسفة، أصبحت تعرف بالتخصص فتجزأت المعارف العلمية عبر التخصصات الدقيقة، وأصبح كل تخصص يشكل مجاله الخاص من الدراسة، مما قضى على النسيج المركب للمعرفة، ذلك لأن المعرفة ذات طابع شمولي، الأمر الذي يستدعي وبالضرورة توحيد المعارف وتناهجها. وهذا المسعى هو الذي سعت إليه علوم الإنسان من خلال سعيها إلى التناهج مع العلوم الطبيعية، وهذه الفكرة هي جوهر النموذج المعرفي الجديد الذي يدعو إليه "إدغار موران"، والمتمثل في نموذج "الفكر المركب".	الكلمات المفتاحية: الدراسات البينية الموسوعية التكامل المعرفي العلوم الإنسانية العلوم الطبيعية النموذج.

* Corresponding author at: Faculty of Humanities and Social Sciences, Hassiba Benbouali University of Chlef, ALGERIA.
Email: k.daoud@univ-chlef.dz

1. مقدمة

كما تعني العلوم الإنسانية ذلك المجال من الدراسات التي تستعمل المنهج العلمي في دراسة النشاط الإنساني، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى الفرد داخل الجماعة (مصلح، 1999، ص476). وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصطلح الحالي المستخدم وهو أي العلوم الإنسانية مصطلح حديث النشأة.

نستطيع القول إذن، إن الإنسان وما يتعلق بأبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية، ومحاولة فهمها وتفسيرها وضبطها في قوانين علمية هو المحور الذي يدور حوله موضوع العلوم الإنسانية

اعتبر كلود ليفي ستراوس 1908 – 2009 C. Lévi-Strauss العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية حقلين علميين متقاربين، غير أن مصطلح العلوم الإنسانية الذي بدأ يسود في السنوات الأخيرة يبدو أصوب، لأن الإنسان – الذي لا يتواجد إلا في صورة جماعية – هو الموضوع المحوري والوحدة النهائية التي تردت إليها الدراسة في هذه الحقول.

هذه القرابة بين العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تعني أنهما شيئا واحدا في نظر ليفي ستراوس؛ حيث يميز بين العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية: ففي نظره أن العلوم الاجتماعية مجرد دراسات قانونية واقتصادية وسياسية، وبعض فروع الاجتماعيات والتقسيمات الاجتماعية. بينما تشمل العلوم الإنسانية ما قبل التاريخ، الأثرية، التاريخ، الأناسة، الفلسفة، المنطق وعلم النفس (ليفي ستراوس، 2008، ص132).

ويرى أنه تندرج كل العلوم التي تبلور نفسها ضمن مجتمعها بالذات تحت عباءة العلوم الاجتماعية، في حين أن العلوم الإنسانية تضع نفسها خارج نطاق كل مجتمع مخصوص. من هنا فإن الأولى تسلم بالانطلاق من الخارج ولكن في سبيل العودة إلى الداخل، والثانية تتبع المنهج المعاكس: فإذا استقر أمرها أحيانا داخل مجتمع مراقب فما ذلك إلا من أجل الابتعاد عنه سريعا بغية إدخال الملاحظات الخاصة ضمن كل ما يمتاز بأفق أرحب وأعم. وهذا معناه أن العلوم الإنسانية عند ليفي ستراوس علوم نظرية، أما العلوم الاجتماعية فهي علوم تطبيقية، تهتم الأولى بالنظريات وتعطي الأولوية للفرد، والثانية عملية وتهتم بما يقوم به الإنسان داخل شبكة من العلاقات (ليفي ستراوس، 2008، ص127 – 132).

3. واشكالية المنهج في العلوم الإنسانية

يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: هل تخضع العلوم الإنسانية للمنهج العلمي كما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية؟

كان هذا السؤال في صلب تجاذب جدل فلسفي ومنهجي، وتحديدًا منذ أن قام أوغست كونت 1798 – 1857 A. Comte ببلورة التصور الوضعي ومحاولة إبراز علم الاجتماع الوضعي على نهج العلوم الطبيعية، فقد وصلت العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وبيولوجيا إلى درجة كبيرة من التطور

قطعت العلوم الطبيعية شوطا كبيرا في تطبيق المنهج التجريبي منذ انفصالها عن الفلسفة في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، ولا تزال العلوم الطبيعية نموذجًا معرفيًا ومنهجيًا تسعى بقية الفروع المعرفية الأخرى إلى الاستفادة منها والاقتداء بها، ذلك لأنها قطعت أشواطًا في مجال المعرفة العلمية بفضل تطبيقها للمنهج التجريبي ذو الطابع الموضوعي. وإن هذا التطور الكبير الذي وصلت إليه العلوم الطبيعية كان بفضل جهود الكثير من العلماء الذين انكبوا على دراسة الطبيعة واستقراء ظواهرها.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد نجحت في تطبيق المنهج التجريبي على ظواهرها ولم تصادفها في ذلك عوائق كبيرة تذكر، فإن العلوم الإنسانية على عكس ذلك صادفتها صعوبات كثيرة، نظرًا لطبيعتها الخاصة المتميزة لاتعقيد والتشابه والتداخل. الأمر الذي أدى بالعلوم الإنسانية إلى محاولة الاقتداء بالعلوم الطبيعية في تطبيق المنهج العلمي والسعي إلى الانتقال من الفهم والتفسير إلى التجريب، ومن كيف على التكميم، أي أن تنماهى منهجيا مع العلوم الطبيعية مع الحفاظ على خصوصية موضوعها، والإشكال الذي يطرح نفسها هنا هو إلى أي حد استطاعت العلوم الإنسانية تحقيق ذلك المسعى؟

منطلق بحثنا هو الفرضية التالية: إن انفصال العلوم عن بعضها معرفيا ومنهجيا، من شأنه أن يؤدي إلى معرفة ناقصة بالظواهر المدرسة وعدم القدرة على الإحاطة بمختلف أبعادها.

يهدف البحث إلى إبراز ضرورة التكامل المنهجي بين مختلف العلوم، حيث إن العلوم تتكامل فيما بينها من أجل فهم أفضل لطبيعة الظواهر المركبة، وبالتالي كسر الحواجز بينها وهو ما يمكن كل علم من أن يستفيد من العلوم الأخرى في الوقت ذاته يفيدها هو كذلك.

ولأجل الإجابة على الإشكالية المطروحة والتحقق من صحة الفرضية استخدمنا المنهج التحليلي لبيان ضرورة التكامل المنهجي والمعرفي بين مختلف العلوم لاسيما بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية.

2. في مفهوم العلوم الإنسانية وطبيعتها

إن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي تلك المجموعة من المعارف أو الخطابات التي يكون الإنسان محور موضوعها، فهي مجموع العلوم التي تختص بدراسة الإنسان في أبعاده المختلفة، كالبعد النفسي الذي يهتم به علم النفس، والبعد الاجتماعي الذي يتناوله علم الاجتماع، والبعد التاريخي الذي يدرسه علم التاريخ. إذن هي علوم لا علم واحد، تشمل العديد من الفروع المعرفية، ولذلك تُعرّف العلوم الإنسانية بأنها تعنى بوصف ودراسة وتحليل وتوثيق التجربة الإنسانية من جميع جوانبها وفي مختلف أبعادها.

غير ملائم لهذا النوع من الظواهر لأنها ليست من نفس طبيعة العلوم التجريبية (غراب، 2015، ص4).

ومن خلال ذلك يبدو الفرق واضحاً بين العلوم الطبيعية والإنسانية: فالعلوم الطبيعية تهتم بدراسة الظواهر الطبيعية التي تتصف بالثبات النسبي. أما العلوم الإنسانية فتهتم بدراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية التي تتصف بأنها دائمة التغير وبالغمة التعقيد. ومن هذا المنطلق، فإن أي استخدام للمنهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية لا يجب أن يتم بمعزل عن إدراك طبيعتها الخاصة. ومما لا شك فيه أن العلوم الإنسانية والاجتماعية تعني من الناحية المنهجية، قصوراً واضحاً يتمثل في عدم دقتها وعدم موضوعيتها. وهي بالإضافة إلى ذلك تعاني من كثرة الخلافات بين المشتغلين فيها حول المنهجية الملائمة. ولذلك نحى البعض نحو إطلاق اسم "الإنسانيات" أو "الدراسات الإنسانية على تلك العلوم، ويرفضون مطلقاً وصفها بـ "العلمية" وحجتهم أنه يستحيل فيها التوصل إلى حقائق فيها شيء من الموضوعية مماثلة لتلك الحقائق الموضوعية التي نتوصل إليها في العلوم الطبيعية، وبالتالي فإن بعض مستخدمي هذا الاسم - أي الإنسانيات - من أمثال: أنصار "الوضعية المنطقية المعاصرة": رودولف كارناب 1891 - 1970 R. Carnap وهانز ريشنباخ 1891 - 1953 H. Reichenbach والابستمولوجي "كارل بوبر" 1902 - 1994 K. Popper لا يخفون سعيهم للحط من قيمة المعارف التي يتوصل إليها في ميدان "الإنسانيات" باعتبارها مفعمة بالمفاهيم الميتافيزيقية، ويغلب عليها الطابع الفلسفي التأملي البعيد عن روح العلم ومنهجه.

4. العلوم الإنسانية وأشكالية المنهج

إلى وقت متأخر من تطور العلوم، لم تكن العلوم الإنسانية مستقلة في مباحثها ومناهجها، وإنما كانت جزءاً من الفلسفة، وبقيت النظرة اللاهوتية والميتافيزيقية مرتبطة أشد الارتباط بكل بحث يكون موضوعه الإنسان من جوانبه النفسية أو الاجتماعية أو التاريخية.

ففي الفلسفة المعاصرة مثلاً، نجد الفلسفة الفينومينولوجية ترى أنه لا يمكن الفصل بين الفلسفة والعلوم الإنسانية، لذا سعت إلى التوصل لمنهج يتيح في آن واحد بالتفكير في الخارج، وهو مبدأ علوم الإنسان والتفكير في الداخل وهو شرط الفلسفة. ومنذ نشأة الفلسفة الفينومينولوجية مع إدموند هوسرل 185 - 1938 E. Husserl بدت كمحاولة لحل المشكلة التي أثارها أزمة الفلسفة وأزمة العلوم الإنسانية، وقد أرجع هوسرل الأزمة في العلوم الإنسانية إلى النوع من التطور الذي طرأ على البحوث النفسية والاجتماعية والتاريخية وجعلها تقدم كل فكر أو رأي محدد بواسطة فعل مشترك بين كل من علم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ. ولكي تعبر الفلسفة عن الإنسان، ولكي تميز بين الصواب والخطأ، فلا بد أن تعبر عن

بفضل اعتمادها على المنهج التجريبي، وذلك ما جعل من مناهجها مثلاً جديراً بالاحترام والتطبيق. وقد سعت العلوم الإنسانية إلى تطبيق هذا المنهج التجريبي بهدف تحقيق أكبر قدر من العلمية والدقة والموضوعية التي هي شروط يتطلبها كل بحث علمي أصيل وجدير بهذا الاسم.

إن الإنسان هو موضوع العلوم الإنسانية كما هو واضح من خلال التسمية، وما يميز الطبيعة الإنسانية هو الخصوصية من فرد إلى آخر، فكل واحد منا يصنع مشروعه في الحياة حسب قدراته وميولاته الخاصة. لذا نجد الظواهر التي تخص الإنسان من سلوك سوي أو غيره تختلف أسبابه من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، حسب الظروف التي يحي فيها الفرد، حيث تؤثر فيه عدة عوامل؛ منها الثقافى والعقائدي والعادات والتقاليد، بالإضافة إلى الوعي والإرادة الحرة والشعور والذاكرة، وغيرها.

وباعتبار أن الظواهر الإنسانية كيفية فإن الملاحظة المباشرة غير ممكنة، لأنها ظواهر تحدث في الزمان ولا تتحيز في المكان، لذا يتم ملاحظتها بصورة غير مباشرة كما هو الحال في الحوادث النفسية أو التاريخية أو الاجتماعية، وهذا لا يعكس لنا حقيقة الظاهرة المدروسة التي تشترط الملاحظة المباشرة، أي ملاحظة الظاهرة أثناء حدوثها. وأيضاً يتعذر التجريب، لأنه لا يمكن اصطناع ظاهرة إنسانية، كما أن الاعتبار القيمة من أخلاق وقوانين تفرض احترام الكرامة الإنسانية، وبالتالي فهي تقف حائلاً دون التجريب على الكائن الإنساني. كما أن من شروط تحقق علمية أي بحث من البحوث هو القابلية للتعميم والتنبؤ كما هو الحال في البحوث الطبيعية، ولكن في البحوث الإنسانية لا يمكن تعميم النتائج لتمييز الإنسان بالفردية، ويستحيل التنبؤ بالسلوك الإنساني، باعتبار أنه سلوك حر لا يخضع للتحتمية على غرار الظواهر الطبيعية.

كما أن درجة اليقين في العلوم الإنسانية نسبية لأن النتائج المتوصل إليها تقريبية احتمالية، فدراسة الظاهرة الإنسانية تخضع لظروف وعوامل خاصة، كتأثير البيئة التي يحي فيها الإنسان، فيصعب التحكم في الظاهرة، حيث إن دراسة أي ظاهرة تتعلق بالعلوم الإنسانية تتغير بتغير الزمان والمكان والظروف والأحوال، فنحصل على نتائج مغايرة حتى وإن كانت الدراسة مسلطة على نفس الظاهرة، فمثلاً معالجة أي ظاهرة إنسانية أو اجتماعية كظاهرة الانتحار أو ظاهرة الطلاق في مجتمع ما، هي ليست نفس الأسباب والدوافع لهذه الآفة في مجتمع آخر بالنظر لوجود مواقف جديدة تحتوي على عناصر ومكونات خاصة بذلك المجتمع هي غير متوفرة في مجتمع آخر، فإدراك الوقائع في العلوم الإنسانية لا تكون بالحواس لأنها ذاتية فلا يمكن تكرارها كالعواطف والنيات وغيرها من هواجس الشعور واللاشعور التي لها تأثير مباشر أو غير مباشر في السلوك، ومن الصعب قياس تلك المؤثرات الخفية أو التحكم فيها، الشيء الذي يجعل من منهج التفسير

5. تناهج العلوم الإنسانية وعلوم المادة

نقصد بالتناهج تداخل المناهج وتعددتها على مستوى التوظيف والممارسة، وقبل الحديث عن التناهج لابد من الحديث عن الأحادية المنهجية والثنائية المنهجية والتعددية المنهجية.

يقصد بالواحدية المنهجية، تلك الرؤية التي تقول إنَّ منهج التفكير والبحث في أية مسألة من مسائل الواقع الطبيعي أو الاجتماعي أو الإنساني، أو في أي حقل من حقول المعرفة هو منهج واحد، وبالتالي فهي رؤية واحدة تختزل منهج البحث في منهج واحد فقط. إن الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته كان يستعمل منهجاً واحداً، على اعتبار أن الفكر البشري وعبر كل مرحلة من مراحل تطوره وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى كان يسلك منهجاً واحداً. وربما المراحل الثلاث التي مرَّ بها الفكر البشري وتحدث عنها أوغست كونت هي تعبير عن هذه الرؤية الواحدة للمنهج؛ إذ يرى أنَّ الفكر البشري قد مرَّ بثلاث مراحل بدءاً بالمرحلة الدينية اللاهوتية، ومروراً بالمرحلة الفلسفية الميتافيزيقية، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية العلمية، التي تمثل مرحلة نضج وكمال العقل البشري باكتشافه المنهج العلمي التجريبي.

يمكن القول، إن الواحدية المنهجية هي رؤية رديّة: تحاول رد جميع العلوم للفيزياء، ورد جميع طرق البحث لمنهج واحد هو المنهج العلمي التجريبي الاستقرائي المطبق في الفيزياء، باعتبار أن التجربة كما هي في الفيزياء هي النموذج الذي ينبغي أن يقتدى به. ولعل تطور العلم التجريبي الطبيعي جعل بعض العلماء يعتقدون أن مسألة المنهج محسومة لصالح المنهج العلمي، الذي أثبت نجاعته وفاعليته في دراسة الظواهر المادية وضبط قوانينها مع القدرة على التحكم فيها والتنبؤ بها، وبفضل ذلك انتقل المنهج العلمي بخطواته وأدواته على العلوم الإنسانية والاجتماعية، فأصبح من المسلم به أن استخدام المنهج العلمي هو الطريقة المثلى والمنهج الوحيد في دراسة أي موضوع من الموضوعات.

أما الثنائية المنهجية فيقصد بها استعمال منهجين مختلفين لكن كل منهما يكمل الآخر؛ ولعل أحسن نموذج لهذا المنهج نجده في العلم الطبيعي عند تزاوجه بالعلم الرياضي، فنجد أنه عند غاليليو غاليلي 1564 - 1642 G. Galilei لما جمع الرياضيات إلى العلوم التجريبية عندما استخدم المنهج الرياضي وتطبيق الرياضيات في الدراسات الطبيعية التجريبية، وذلك عن طريق الجمع بين علوم الطبيعة (الفلك والفيزياء) والرياضيات، وهذا الجمع بين التجربة والصياغة الرياضية للنتائج هو الذي حدد أنموذج العلم الطبيعي (ريشباخ، 1968، ص 95)، وهذا الأنموذج الذي يجمع التجربة العلمية إلى الرياضيات هو ما يسمح باستعمال منهجين متداخلين ومتفاعلين هما المنهج التحليلي والمنهج التركيبي، فعن طريق التركيب يمكن جمع وقائع ملاحظة عديدة في صيغ رياضية واحدة، بينما

معطياتها باحتكاك مباشر وداخلي بالعقل مع العقل، ولا تكون تعبيراً عن بعض الشروط الطبيعية أو التاريخية الخارجية، لذا شعر هوسرل بأن المشكلة تكمن في جعل الفلسفة علوم الإنسان، وإعادة التفكير في أسسها وفي أسس العقلانية (علا، 1996، ص 193).

كان فلهم دلتاي 1833 - 1911 W. Dilthey قد إيجاد منهجاً ملائماً لمجال العلوم الإنسانية، ولم يكن هذا المنهج سوى الفهم باعتباره الأنسب إلى هذا المجال. لقد كانت رغبة دلتاي محاولة التأسيس لمنهجية علوم الإنسان تختلف عن المنهج المطبق في علوم الطبيعة، من حيث إن التجربة الخارجية (الموضوعية) هو الأساس الذي تقوم عليه العلوم الطبيعية، بعكس حال العلوم الإنسانية التي تقوم على التجربة الداخلية (الذاتية).

هذا المنحى جعل من الهيرمينوطيقا كنوع من الدراسات الاستيمولوجية التي تختص بعلوم الإنسان مقابل استيمولوجيا علوم الطبيعة، حيث تتجه استيمولوجيا علوم الإنسان إلى اعتبار "الفهم" منهج العلوم الإنسانية، بينما تتجه استيمولوجيا علوم الطبيعة إلى اعتبار "التفسير" منهجاً للعلوم الطبيعية.

يمكن القول إن دلتاي حاول من خلال الهيرمينوطيقا سعى لأن يكون للعلوم الإنسانية أساس منهجي يحقق لها استقلاليتها عن العلوم الطبيعية، بحيث تصبح هذه الأخيرة لا تتميز عن العلوم الإنسانية بأدواتها المنهجية، بل في التوجه المعرفي لكل منهما (توفيق، 2002، ص 88).

أما هانز جورج غادامير 1900 - 2002 H. G. Gadamer فإنه استيمولوجيا يرفض مقابلة علوم الإنسان بعلوم الطبيعة ولاسيما من الناحية المنهجية، فهو يستبعد - في كتابه "الحقيقة والمنهج" - إمكان الوصول إلى الحقيقة المطلقة انطلاقاً من منهج واحد، لأن الحقيقة اليقينية لا تتأسس على المنهج، على اعتبار أن المنهج ذاته ليس إلا وسيلة للاقترب من الحقيقة فقط.

والمقصود بالمنهج عند غادامير ذلك على الذي يقوم على الموضوعية عن طريق الانفصال الذي يحدثه بين الذات والموضوع، حيث يمكن لعالم الذات تفهم حقيقة عالم الموضوع. يتعلق الأمر هنا بتجاوز الثنائية التقليدية للذات والموضوع في نظرية المعرفة تأثراً بمارتن هايديجر 1889 - 1976 M. Heidegger وغيره من الفينومينولوجيين المتأثرين بدورهم بفكرة إدموند هوسرل "الوجود الإنساني في العالم" باعتبارها خاصية مميزة لأسلوب وجود الإنسان في العالم لا ينفصل فيه الوعي عن الأشياء الموجودة في عالمه (توفيق، 2002، ص 88).

بشكل عام يمكن القول إن الهيرمينوطيقا أداة منهجية للعلوم الإنسانية، تسعى إلى تسليط الضوء على المنتج الروحي للتاريخ والفن والتراث، باعتبارها منتج معطى في خبرتنا المباشرة.

بينما التعددية المنهجية فهي في أبسط صورة استخدام أكثر من ملاحظ، أو أكثر من منهجية، أو استخدام أكثر من مصدر للبيانات، أو أكثر من أداة من أدوات جمع البيانات، أو استخدام أكثر من نظرية لتفسير البيانات بعضها أو كلها. ويتكون التعدد المنهجي من خمسة أنواع رئيسية وهي: تعدد النظريات وتعدد المناهج وتعدد الملاحظين وتعدد النظميات وتعدد أدوات جمع البيانات وتعدد مصادر البيانات (الداغ، 1996، ص15).

ظهرت تعددية المناهج في معناها العام لإقامة جسور بين المناهج، وتخطي حدودها المغلقة من أجل تحقيق نوع من التكامل المعرفي، الذي يساهم بدرجة كبيرة في تعميق البحث العلمي، وحل المشكلات التي لا يستطيع منهج معني واحد حلها.

ومن معالم التناهي بين العلوم الإنسانية وعلوم المادة هو نزوعها نحو التجريبية كما يتجلى ذلك في علم النفس التطبيقي وكذا انتقالها من الكيف إلى التكميم كما يتجلى ذلك في اختصاصات متعددة من العلوم الإنسانية التي سعت إلى الضبط الكمي للنتائج من أجل بلوغ الدقة التي بلغت علوم المادة مثل قياس نسبة الذكاء في علم النفس، واستخدام الإحصاء والرسومات البيانية في مجالات العلوم الاجتماعية.

6. الفكر المركب كمنهج للدراسات البيئية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية

يدعو إدغار موران 1921 - E. Morin إلى قراءة العلم المعاصر ضمن رؤية موحدة بعيدة تماما عن النظرة التجزئية التي كرستها الاستيمولوجيا الاختزالية. وضمن هذه الرؤية المركبة يدعو إدغار موران إلى ضرورة التكامل بين مختلف العلوم لا سيما العلوم الإنسانية والطبيعية.

إن الفكر المركب هو وحده جدير بتحقيق هذه المهمة باعتباره نوع من الاستيمولوجيا المفتوحة أو الحوارية، التي تهدف إلى إيجاد مختلف الارتباطات بين العلوم. إن الفكر المركب - الذي يتكون من مجموع العلوم: الفيزياء، البيولوجيا، الكيمياء، وعلم الاجتماع والآداب التي ينبغي أن تتوحد معا في استيمولوجيا واحدة هي الاستيمولوجيا المركبة أو استيمولوجيا التعقيد - يختلف عن فكر الحداثة الأوربية الذي قام على البساطة الديكارتية والاختزال والانفصال بين المعارف.

منذ أواخر القرن التاسع عشر، وهو الوقت الذي عرفت فيه العلوم الطبيعية تقدما هائلا على مستوى الموضوعات والمنهج، كانت أيضا العلوم الاجتماعية تواكب هذا التطورات لاسيما في مجال التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية، وساد نقاش طويل حول وضعها المعرفي، وتحديدًا إن كان يمكن وصف هذه الفروع بـ"العلمية". واستمرت المناقشات حول نظرية المعرفة سواء في جانب العلوم الطبيعية أو جانب التخصصات الاجتماعية

عن طريق التحليل يمكن انطلاقا من هذه القوانين استنباط عدد غير من الوقائع. وفي هذا الصدد يقول غاليلو: «... وليس يحصل الاستكشاف باستقراء جميع الحالات الممكنة، وإنما يحصل باستخلاص فرض من تجارب معدودة، ومحاولة تركيب قياس يبين أن ذلك الفرض مطابقا لتجارب أخرى، بحيث يتكامل التحليل والتركيب ويتساندان» (كرم، د ت، ص22-23).

هذا الجمع بين التحليل والتركيب والصياغة الرياضية كان أساس المنهج العلمي في العصر الحديث، مما سمح باكتشاف قوانين هامة للطبيعة تفسر ظواهر معينة كالسقوط الحر، وحركة الأجسام وسكونها، ومسار القذائف ونظريات في السؤال، بالإضافة إلى النتائج المتحققة في علم الفلك. وعليه يمكن القول إن بداية تشكيل العلم الحديث قد بدأت مع غاليلو لما استعان بالعلوم الرياضية في صياغة القوانين العلمية بصورة رمزية، جامعا بذلك بين المنهج الرياضي والأسلوب التجريبي، مما مكن من الوصول إلى علم طبيعي رياضي قادرا على توقع الظواهر والتنبؤ بحدوثها.

كما نجد الثنائية المنهجية لدى إسحاق نيوتن 1642 - I. Newton 1727؛ فنيوتن لم يكن تجريبيا بصورة مطلقة، كما لم يكن عقلانيا بصورة خالصة، بل جمع بين التجريبية والعقلانية، وكان من العلماء الأوائل الذين جمعوا بين المبدأين الأساسيين في الثورة العلمية: تيار الرياضيات وتيار التجريبية، ذلك لأن نيوتن استخدم الطريقة الاستقرائية التجريبية واستخدم المنهج الاستنباطي الرياضي. ففي نظره أن الطريقة الاستنباطية لا يمكن وحدها أن تقدم تفسيراً صحيحاً عن الواقع المادي، بل لابد إلى جانب ذلك من استخدام المنهج الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجريب حتى نصل إلى القوانين العلمية. وهذه القوانين تحتاج بدورها إلى الرياضيات لتعبر عن نفسها تعبيرا دقيقا. فإذا كان التجريب ضروريا في العلوم الطبيعية للوصول إلى القوانين، فإنه من اللازم تكميم الظواهر الطبيعية وصياغة النتائج في حدود رياضية. وعلى هذا الأساس يكون من الضروري أن تستعين العلوم الطبيعية بالعلوم الرياضية في صياغة القوانين الطبيعية. وهذا يعني أن نيوتن لم يختلف مع غاليلو في منهجية البحث وتطبيق الأسلوبين معا التحليل والتركيب، من حيث القيام بالملاحظات والتجارب واستنباط نتائج عامة منها بالاستقراء، فبالتحليل إذن نصل إلى معرفة الأجزاء، وإلى معرفة العلل عن طريق معرفة معلوماتها. وبالتركيب نفترض أن هذه النتائج المتوصل إليها عامة، هي بمثابة مبادئ أو قوانين نفسر بها الظواهر (الشنيطي، 1981، ص109)، غير أن نيوتن كان يغلب المنهج التحليلي على التركيبي من حيث إنه يسعفنا في فهم سليم الظواهر تدريجيا. ولا شك أن الاستنباط الرياضي المقترن بالملاحظة والتجربة هو الأداة الأكثر نجاعة في العلم الحديث.

ومن ثم، كانت المعرفة التي ينادي بها إدغار موران حول الإنسان مركبة ومعقدة حيث يقول:

«إن المعرفة التي ننادي بها معقدة:

- لأنها تعترف أن الكائن الإنساني الذي يدرسها هو جزء من موضوعها.

- لا تفصل بين الوحدة البشرية وتنوعها.

- تعي جميع أبعاد واقع الإنسان المجزأة حاليا إلى فيزيائية وبيولوجية وسيكولوجية ودينية واقتصادية واجتماعية وتاريخية...» (Morin, 2001, p12 - 13).

إن التصورات الكلاسيكية التي تستند على الدراسات المتخصصة قد ساهمت في تجزئة جوانب الإنسان الثقافية والبيولوجية وحتى الحيوانية، ويضرب إدغار موران مثالا عن ذلك الدماغ والذهن، فالأول موضوعا لعلم البيولوجيا والثاني يتم تناوله من خلال علم النفس، وكون الدماغ والذهن لا يقبلان الفصل بينهما، فإن للإنسان إذن جانبه البيولوجي والنفسي، ومن الضروري الأخذ بالهوية المزدوجة في الاعتبار. ويدرس الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ جانبنا الثقافي، وهي فروع معرفية ينبغي الربط بينها. أما الفنون والأدب، فإنهما يسمحان بالاقتراب من ذاتية الكائن وحياته اليومية وآلامه؛ وذلك مالا تظهره العلوم. يقول إدغار موران عن هذه التجزئة والتخصص:

«في الوضع الحالي لا تستطيع المعرفة أن تفكر في ذاتها للأسباب التالية:

- الدماغ الذي ننطلق منه يُدرس في أقسام العلوم العصبية.

- العقل الذي يكونها يدرس في أقسام علم النفس.

- الثقافة المرتبطة بها تدرس في أقسام علم الاجتماع

- المنطق الذي يتحكم بها يدرس في أحد أقسام الفلسفة.

وهذه الأقسام لا تتواصل فيما بينها من الناحية المؤسساتية» (موران، 2012، ص105).

ليس هذا فحسب، إن وضع الحواجز بين التخصصات العلمية قد أحدث تفككا كبيرا على أصعدة عدة: فقد فرقت الفيزياء بين المعلومة والحوسبة والذكاء الاصطناعي. وفرقت البيولوجيا بين الجهاز العصبي والدماغ وتطوره. أما علوم الإنسان فقد فصلت وفرقت بين الألسنية وعلم النفس المعرفي والتحليل النفسي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية والتاريخ، وفرقت كل من العلم والفلسفة بين المنطق والابستمولوجيا... وفي الوقت الذي كان ينبغي على هذه التخصصات أن تتواصل فيما بينها، فإننا نراها على العكس من ذلك تماما تتباعد وتتنابد (موران، 2012، ص24). إن الانفصال بين العلم والفلسفة - مثلا - قد أدى في نظر إدغار موران إلى جعل تصوراتنا حول

والإنسانية، التي تقدمت بها الوضعية الجديدة تحديدا، وكان من بين القضايا التي أثارت للنقاش حول هذين النوعين من المعرفة مشكلة التفسير والفهم... وكان هناك اختلافا في تلك العلاقة بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة، فنرى تارة علوم الإنسان تحذو حذو علوم الطبيعة وتقتاد بمناهجها، وتارة أخرى تعلن عن خصوصيتها وتدعو إلى التقيّد بمناهج تتلاءم مع طبيعة موضوعها (الحمدى، د ت، ص13).

في رأي إدغار موران أنه لا شك أن هناك علوم إنسانية واجتماعية تتناول واقع الإنسان النفسي والديني والاجتماعي والاقتصادي، غير إنه لا يوجد أي تواصل بين هذه العلوم، الأمر الذي سيؤدي في نهاية المطاف أن ندرك هذا الواقع كأجزاء منفصلة بعضها عن بعض. وبخلاف الواقع الإنساني والاجتماعي للكائن البشري هناك واقع بيولوجي؛ فنحن لسنا إلا كائنات حية بما ذلك الدماغ الذي لا يمكن أن نفكر بدونه. وهذا الواقع البيولوجي يتكون بدوه من ذرات وعناصر موجودة في العالم المادي الطبيعي، مما يعني أن ارتباطنا بالعالم الطبيعي أشد عمقا مما نتصور. وعلى هذا الأساس لا يجوز بأي حال من الأحوال اختزال الواقع الإنساني فيما هو روحي ثقافي أو ديني ولا اختزاله أيضا في بعده البيولوجي أو المادي.

من هذا المنطلق، يدعو إدغار موران إلى ضرورة النظر إلى مختلف الأبعاد المتعددة من خلال منهج متعدد التخصصات، وربط العلوم البيولوجية والتشريحية والاجتماعية والإنسانيات بعضها ببعض. يتعلق الأمر هنا بإعادة ربط ما شتته المعارف الكلاسيكية وعلوم الإنسان.

إن الأسلوب المعرفي القائم على الفصل والاختزال قد وقف حائلا دون فهم التعقيد الإنساني، حيث تهتم مختلف العلوم بالظاهرة البشرية كل من زاوية خاصة ومحددة، فتم تجزئة الإنسان إلى أجزاء، كل جزء معزولا عن الآخر في العلوم الإنسانية (نفسيا، اجتماعيا، ثقافيا..)، بينما غاب الإنسان في علوم العالم الفيزيائي مع أنه "آلة حرارية" أيضا، وغاب أيضا عن علوم عالم الأحياء مع أنه "حيوان" كذلك (موران، 2009، ص22). وبالتالي نحن بحاجة إلى فكر يجمع عناصر التعقيد البشري (البيولوجية والثقافية والاجتماعية والشخصية) وتنظيمها، لأن فهم الإنسان يتطلب الوعي بالطابع المركب لهذا الإنسان، فـ«مصطلح "إنساني" غني، ومتناقض، ومزدوج: إنه في الواقع، جد معقد بالنسبة للأذهان المجرولة على إجلال الأفكار الواضحة والمميزة» (موران، 2009، ص23). وهذا يعني أن التعقيد البشري يفتح الطريق أمام كل من الفيزياء والبيولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية ويهدف إلى بناء تصور شامل عن الطبيعة البشرية بإبراز التداخل بين العضوي الحيوي والفكري الثقافي. إن الإنسان بوصفه هوية موحدة لا ينبغي أن ينظر إليه كمجموع من الأجزاء سواء كانت ثقافية أو بيولوجية أو نفسية.

هائلة، ويستلزم الدماغ الوجود البيولوجي للفرد، بالإضافة إلى بيئة اجتماعية منتعشة بالثقافة واللغة والمعلومات. وبالتالي وبحسب إدغار موران: «يقتضي كل حدث معرفي تضافرا بين العمليات الطاقوية والكهربائية، والكيميائية، والفيزيولوجية، والدماغية، والوجودية، والنفسية، والثقافية، واللغوية، والمنطقية، والفكرية، والفردية، والجمعية، والشخصية التي تتواشج معا. المعرفة هي ظاهرة متعددة الأبعاد، أي أنها بشكل متلازم فيزيائية، وبيولوجية، ودماغية، وذهنية، ونفسية، وثقافية، واجتماعية في الآن نفسه وبشكل متلازم» (موران، 2012، ص24).

يستلزم الأمر أن كل معرفة تحتوي على مكونات بيولوجية ودماغية وثقافية واجتماعية وتاريخية، بل ويستلزم الأمر أن أبسط فكرة تحتاج إلى تعقيد بيولوجي - انثروبولوجي هائل، وإلى تعقيد اجتماعي - ثقافي شديد، ذلك أن كل تعقيد هو تلك العلاقة التكاملية والتعارضية والتنافسية والتكرارية بين عناصر المعرفة التي تولد بعضها بعضا (موران، 2012، ص29-30).

نصل مع إدغار موران أن معرفة المعرفة تتطلب فكرا مركبا منهاجا قادرا على التفكير في تعددية الأبعاد، يفترض هذا المسعى بضرورة إصلاح الفكر والبحث عن مواطن التخوم بين مختلف العلوم، تتحقق فيه معرفة سياقية وشمولية، بعلا تعرف التجزئة والفصل والاختزال، مما يسمح بتشكيل خطاب جديد عن المعرفة غير تبسيطي وغير اختزالي يعتمد على التفسير العقلاني الذي يحتكم إلى الواقع بكل ترابطاته وتركيباته وتعقيداته وتناقضاته. من هنا، فإن الفكر المركب ليس إلا منهجا لقراءة العلم المعاصر، يروم إلى فهم طبيعة المعرفة العلمية المعاصرة انطلاقا من عناصر التداخل والتفاعل بين مختلف أنواعها وفروعها، حيث لا يمكن إدراك التعقيد الموجود إلا من خلال التكامل والتفاعل والترابط الذي ينبغي أن يوجد في الفكر وفي العلم.

7. مناقشة النتائج

إن الدراسات البينية في إطار الفكر المركب ليس إلا منهجا يحترم من جهة خصوصيات كل نطاق المعرفة، ومن جهة أخرى يسعى إلى المحافظة على العلاقة التي تجمع كل التخصصات من فلسفة وفيزياء وعلم اجتماع وانثروبولوجيا وغيرها. وهنا تبرز مدى حاجة العلوم إلى الانفتاح على بعضها بهدف تحقيق علوم موحدة معرفيا ومنهجيا.

والحقيقة أنه ومنذ أن استقلت الاختصاصات العلمية بالتدرج من رياضيات وفلك، وفيزياء، وكيمياء والبيولوجيا اختزلت المعارف العلمية في أبسط القضايا، فتناول كل علم الظواهر من جانبه فقط، مما قضى على النسيج المركب للمعرفة، ذلك لأن المعرفة ذات طابع شمولي، الأمر الذي يستدعي بالضرورة توحيد المعارف وتناهجها.

العقل والدماغ محكومة إما بالتفكك أو الاختزال (اختزال العقل على أنه الدماغ)، حيث إن التفكك الذي ساد الثقافة الغربية منذ القرن السابع عشر قد وضع العقل في مملكة العلم وأخضعه بصورة صارمة للقوانين الآلية والحتمية للمادة، في حين أن العقل يعيش في اللامادية والإبداع والحرية في مملكة الفلسفة والإنسانيات. والحقيقة أن كلا المفهومين مهيمنا ومُختزلان: اختزال كل ما هو روحاني إلى المادة، أو اختزال كل ما هو مادي واعتباره منتجاً للعقل (Morin, 1986, p70-71).

ينبغي على المعرفة إزاء هذا التشظي أن تهتم بتطوير المناهج التي تختص بعلوم التعقيد بهدف تنظيم المعرفة لا هيكلتها. وعلى الفكر إصلاح المعرفة ذاتها على أساس التواصل بين العلوم والتخصصات التي تمّ الفصل بينها تقليديا. وهذا ما يستلزم بالضرورة الحاجة للتفكير في الفكر المركب.

وبالتالي، فإن الفكر الذي ينحو نحو المعرفة المتعددة الأبعاد إنما هو تطلع إلى التركيب، لا إعطاء المعلومات الكاملة عن ظاهرة التي هي محل دراسة، ولكن باحترام مختلف الأبعاد المكونة لها. من هنا، فإن الفكر المركب، بتطلعه إلى تعددية الأبعاد هو فكر شمولي لا يعترف بالفصل والاختزال.

يصبح من الضروري هنا، إقامة حوار وتواصل بين مختلف العلوم، ذلك لأن العلوم تتكامل فيما بينها من أجل فهم أفضل لطبيعة الظواهر المركبة. وبالتالي فالغرض من طريقة البحث انطلاقا من الفكر المركب ليس إيجاد مصدر واحد لجميع المعارف، ولكن للإشارة إلى ظهور فكر معقد، والتي لا يمكن رده لا إلى العلم ولا إلى الفلسفة، ولكن عبر السماح له بالمرور من الحوار بين مختلف المعارف، هذا المفهوم يعبر عن شكل الفكر يتحقق بقبول تداخل كل حلقات الفكر والمعارف والعبرمناهجية (transdisciplinarité) حيث تنشأ الخططات المعرفية التي تتجاوز التخصصات الضيقة، بفضل التناهج (interdisciplinaire) بين تخصصات مختلفة تتقاطع فيها علوم الفيزياء والأحياء وعلوم الإنسان مثل علم الاجتماع وعلم النفس بتخصصاتهم المتنوعة. ذلك لأن المعرفة مكون مركب من ما هو بيولوجي، فيزيولوجي، نفسي وثقافي.

يلزم عن ذلك ما يدعوه إدغار موران بضرورة التكامل المعرفي بين العلوم التي تتناول الإنسان موضوعا لها أي "فكر مركب"، منفتح على مختلف الأبعاد؛ وقادرا على إغناء الإنسان بكل تناقضاته، فكر قائم على "الحوارية" تستوعب التناقضات في تصارعها وتكاملها. أي يريد إدغار موران تطبيق الفكر المركب والتعقيد كوسيلة وكأسلوب وكمنهج للتعامل مع الظواهر البشرية، ومن شأن هذا المنهج الذي يستند إلى التعقيد أن يسمح بالمزيد من الدراسة المتعمقة حول علاقة الإنسان بنفسه وبالمجتمع.

بهذه الصورة نستطيع القول إن المعرفة الإنسانية تقتضي جهاز معرفي مكون من: الدماغ باعتباره آلة فيزيو- كيميائية

8. خاتمة

تعتبر العلوم الإنسانية والاجتماعية ذلك العقل المعرفي الذي يهتم بدراسة مختلف أبعاد الإنسان ومواقفه، والتي لها طبيعته خاصة تتميز بالذاتية والكيفية والتغير والتعقيد، مما طرح إشكالية إخضاعها للمنهج العلمي التجريبي على غرار العلوم الطبيعية. ورغم ذلك حاولت العلوم الإنسانية أن تتناهج وعلوم المادة من أجل إقامة جسور بين المناهج، وتغطي تتناهي الحواجز بين المعارف بهدف تحقيق نوع من التكامل المعرفي بينها. ولأجل تحقيق هذه الغاية يقترح علينا إدغار موران الفكر المركب كمنهج للدراسات البينية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية بهدف تحقيق وحدة العلوم.

وأبرز ما توصلنا إليه هو ضرورة التكامل المنهجي بين مختلف العلوم، من أجل تحقيق فهم أفضل لطبيعة الظواهر المدروسة، فالعلوم بحاجة إلى الانفتاح على بعضها ولا يتحقق ذلك إلا من خلال فكر مركب يهتم بالوحدة والتنوع.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

- المصادر والمراجع

1. إدغار موران، (2009)، المنهج: إنسانية البشرية: الهوية البشرية، تر: هناء صبحي، ط1، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي.
2. إدغار موران، (2012)، المنهج / الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها، ترجمة: جمال شحيد، ط1، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
3. إدغار موران، (2012)، المنهج: معرفة المعرفة: أنثروبولوجيا المعرفة، تر: جمال شحيد، ط1، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
4. سامي عبد العزيز الدامغ، (1996)، التعدد المنهجي: أنواعه ومدى ملائمته للعلوم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 24، الكويت.
5. سعيد توفيق، (2002)، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
6. علا مصطفى أنور، (1996)، أزمة المنهج في العلوم الإنسانية، ضمن كتاب جماعي: قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة.
7. غراب مصطفى، (2015)، منهج التأويل في العلوم الإنسانية، مجلة التربية والابستمولوجيا، المجلد 05، العدد 09، مخبر التربية والابستمولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر.
8. كلود ليفي ستراوس، (2008)، مقالات في الأناس، تر: حسن قبيسي، دط، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
9. محرز الحمدي، (د)، الفكر والحياة في فلسفة العلوم الإنسانية، دط، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
10. محمد فتحي الشنيطي، (1981)، المعرفة، ط6، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
11. مصلح الصالح الشامل، (1999)، قاموس المصطلحات العلوم الاجتماعية، ط1، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الأردن.
12. هانز ريشنباخ، (1968)، نشأة الفلسفة العلمية، تر: فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، القاهرة.

13. يوسف كرم، (د)، تاريخ الفلسفة الحديثة، دط، دار المعارف، القاهرة.

14. Edgar Morin, (2001), La méthode: L'humanité de l'humanité, éditions du Seuil, Paris.

- كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

داود خليفة (2025)، العلوم الإنسانية وحاجتها للدراسات البينية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 17، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات: 58-65